الفئة المثقفة الليبية والواقع الاقتصادي في البلاد أواخر العهد العثماني

أ . د . عبد الرزاق أحمد النصيري / جامعة واسط / كلية التربية / قسم التاريخ

كانت فئة علماء الدين هي التي تحتكر المعرفة والنشاط الثقافي في ليبيا([1])لحقب زمنية طويلة ، وكغيرها من البلاد العربية تخرجت منها الفئة المثقفة الليبية الحديثة. وعلى الرغم من صغر حجم هذه الفئة لكنها تركت آثاراً ملموسة في المجتمع الليبيي أواخر العهد العثماني ، لاسيما بعد انقلاب 1908 في العاصمة العثمانية ، حيث استوعبت الفئة المثقفة الليبية مغزى الحدث ، كما أنها كانت ترنو إلى تحقيق إصلاحات سياسية وأقتصادية . واجتماعية في البلاد في ظل النظام الجديد ، الذي تحوّل إلى حلم بالنسبة لهم منذ سنوات.

كانت الصحافة من أهم مظاهر التحديث العثماني المؤثرة في الفئة المثقفة الليبية الحديثة فقد عمل فيها عدد من أقطاب مثقفي المرحلة منهم علي عياد ، إسماعيل كمالي ، محمد التركي ، احمد عبد السلام ، الهادي الجواب وغيرهم ([2]) .

وتعد الصحافة الميدان الرئيس الذي ولجت من خلاله الفئة المثقفة الليبية إلى هموم المجتمع على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وعلى الرغم من أن الصحافة الرسمية ولدت مبكراً في ليبيا متمثلة بالصحيفة الرسمية " طرابلس الغرب" ، التي صدرت عام 1866 ، إلا أنها لم تول أي إهتمام واضح للجوانب الاقتصادية في الولاية ،وقد لمسنا ذلك من خلال اطلاعنا على الأعداد الكثيرة المتوفرة من تلك الصحيفة ، لكن المثقفين الليبيين انتهزوا كل فرصة سانحة للتصدي للجانب الأقتصادي سيما وأن الصحيفة اعتمدت على جريدة "الزراعة " الصادرة في مدينة أزمير التركية ، التي ضمت في ثناياها مواضيع مست جوهر الحياة الأقتصادية في ولاية طرابلس الغرب ([3]) .

إلا أن ذلك لم ينف أن المثقفين الليبيين اطّلعوا من خلال " طرابلس الغرب " على معلومات قيمّة نقلتها الصحيفة من صحف عثمانية مختلفة . فعلى سبيل المثال نقلت الصحيفة المذكورة عن جريدة "

---

1. كانت ليبيا تسمى ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني وبعد إعلان إيطاليا ضمها في 5 تشرين الثاني1911، عرفت الولاية منذ ذلك الوقت بـ " ليبيا " وهي تسمية أطلقها الأغريق على شمال أفريقيا قاطبة . راجع لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة : عفيفة البستاني ، دار التقدم ، موسكو ، 1971 ، ص 364و369 .واستخدام هذا الاسم جاء انسجاماً مع عنوان البحث .وللتفاصيل حول الموضوع الخاص بالمثقفين العرب راجع : هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب عصر النهضة 1875 .1914 ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1970 ، ص17 .

[2] . جريدة " طرابلس الغرب "، طرابلس ، العدد 1362 ،25 ربيع الآخر 1329 (25 نيسان 1911) ؛علي مصطفى المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قرن ، الطبعة الثانية ، الدار الجماهيرية للنشر والاعلان والنشر والتوزيع ، مصراته ،2000 ، ص 48 .

[3] . راجع على سبيل المثال : " طرابلس الغرب " ، العدد 1112 ، 3 محرم 1323 (10 آذار 1905) ؛ العدد1113 ، 10 محرم 1323 (17 آذار 1905) .

الجوائب " الصادرة في استانبول عام 1860 التي وصفت بأنها " من أهم روافد نقل الفكر الأوربي والحضارة الغربية والتمدن الحديث إلى العالم العربي " ([4]).وتفاعل المثقف الليبي مع هذه الصحيفة، وأثنى عليها أحدهم قائلاً " إن الجوائب (قد) علم صدقها وانصافها المنشور في الآفاق "([5]) كما اطلع المثقف الليبي من خلال "طرابلس الغرب " على معلومات نقلت من صحف عثمانية أخرى مثل "تقويم وقائع" و "بصيرت " الصادرتان في العاصمة العثمانية ([6]) .

وفي الوقت نفسه كانت ترد طرابلس صحفاً صادرة في بيروت والقدس ، اطلّع مثقفو الولاية عليها فأسهمت في نمو يقظة فكرية لديهم بحكم التفوق النوعي والكمي للثقافة في الشام عنها في ليبيا إبان تلك المرحلة([7]) . ولم يقتصر الأمر على هذه الصحف بل وصلت ليبيا أعداداً كثيرة من الصحف المصرية والتونسية ، فضلاً عن صحف أوربية مختلفة كانت تصل العاصمة الليبية مثل جريدة " باريس " الفرنسية ([8]) .

تفاعل مثقفو ليبيا مع قناة ثقافية أخرى تركت بصمات واضحة في الحياة الثقافية في مدينة طرابلس على وجه الخصوص . فقد وصلت طرابلس بضع مئات من المثقفين العثمانيين من العاصمة العثمانية ضمن ظاهرة النفي السياسي ، لاسيما من المشاركين في الحركات الثورية بين عامي 1876 . 1908([9]). وأن هؤلاء المنفيين السياسيين العثمانيين عاشوا في طرابلس ناقلين معهم " جو القسطنطينية الحقيقي" على حد وصف أحد المراقبين الأجانب ([10]).

أشّر المثقفون الليبيون أهمية الصحافة للنهوض بالواقع الأقتصادي في البلاد فتطلع كتّاب ليبيا إلى ظهور صحافة تهتم بالشأن الأقتصادي . وقد قدرت الحكومة العثمانية أهمية هذا الأمر ، ودعت إلى

---

[4] . عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، بيروت ،1980 ، ص106 .

[5] . " طرابلس الغرب " ، العدد463 ، 25 ربيع الاول 1299 (14 شباط 1882) .

6 . " طرابلس الغرب " العدد 167 ، 24 صفر 1287 (26 مايس 1870) ؛ العدد 212 ، 7 ذي الحجة 1288 (14 شباط 1872).

[7] . راجع على سبيل المثال : "طرابلس الغرب " ، العدد1113 ، 10 محرم 1323 (17 آذار 1905) .

[8] . راجع على سبيل المثال : " طرابلس الغرب " ، العدد258 ، 18 جمادي الأولى 1291 (3 تموز 1874) .

[9] . أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 ، ترجمة : خليفة محمد التليسي ،الطبعة الثانية ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، 1991 ، ص 458 .

[10]. مابل لومس تود ، أ سرار طرابلس ، الطبعة الأولى ، دار الفرجاني ، طرابلس ، 1968 ، ص 66 .

إصدار مجلة شهرية تعني بالأوضاع الاقتصادية في البلاد ([11]) ، ولعل هذه الحكومة اولت اهتمامها بولاية طرابلس الغرب بسبب الأخطار المحدقة بها لا سيما بعد احتلال فرنسا لتونس عام 1881.

وفعلاً صدرت مجلة " الفنون " في طرابلس في عام 1899 ، فضلاً عن جريدة " الترقي " في مرحلتها الأولى عام 1897 ([12]) .وفي المرحلة نفسها تطلّع المثقفون الليبيون إلى ظهور الجريدة الرسمية بثوب جديد كجريدة زراعية صناعية ... تجارية ، وهو أمر يسترعي الانتباه لأهتمام المثقف الليبي بعصب الحياة الأقتصادية في بلاده ([13]) .

وقد ورد على صفحة الغلاف لمجلة " الفنون " انها صحيفة علمية صناعية زراعية توضيحية مصورة ، وفي عددها الأول يقول مديرها داود أفندي ، وأحد مثقفي المرحلة ، بأن " أهم مواضيعنا ، الزراعة الجديدة ... والمعادن " ([14]) .

لكن صحيفة " الترقي " كانت من أبرز ميادين انطلاق الفئة المثقفة الليبية أواخر القرن التاسع عشر، فقد اسهم فيها النخبة من أمثال صاحبها محمد البوصيري وخالد القرقني، المثقف الذي يجيد عدة لغات ، والصحفي المعروف عثمان القيزاني ، فضلاً عن المؤرخ الليبي المعروف محمد ناجي ([15]). كما أسهم فيها الشاعر البارز مصطفى بن زكري الذي قيّم عالياً صدور الجريدة ووصفها " ظاهرة حضارية "([16]) .

طرأ تطور نوعي في ميدان الصحافة الليبية بعد العام 1908، إذ صدرت جريدة "الترقي" في مرحلتها الثانية إثر توقفها عن الصدور بعد عامها الأول ، وصدر عدد من الصحف الذي يعد كبيراً بمقياس الزمان والمكان،والصحف هي" أبي قشة " ، "الكشاف "،" العصر الجديد" ، " المرصاد " ، و" الرقيب " ،وضمت في ثناياها معلومات مهمة عن تصدي الفئة المثقفة الليبية للواقع القتصادي في البلاد ([17]) .

---

[11] . الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ترجمة : محمد الأسطى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية رقم 7 ،طرابلس ، 1990 . دفتر يحتوي صورة التعليمات المتعلقة بالأفكار التي الهمت إلى الخاطر السلطاني في عمارة ولاية طرابلس الغرب وفي ترقيتها وتقويتها ، بلا تاريخ ، الوثيقة رقم 48 ، ص230 .

[12] . علي مصطفى المصراتي ، المصدر السابق، ص 51 و63 .

[13] . " طرابلس الغرب " ، العدد 1177 ، 11 ذي القعدة 1324 (27 كانون الأول 1906) .

[14] . إسماعيل مولود القروي ، التمهيد الثقافي الايطالي للغزو العسكري لليبيا 1882 . 1911 ، الطبعة الأولى ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، 1993 ، ص56 .

[15] . " مجلة الأفكار " ، طرابلس ، العدد الرابع . الخامس ، آذار . نيسان 1956 ص8 ؛ علي مصطفى المصراتي ، المصدر السابق ، ص 71 .72.

[16] محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح ادبه ، الطبعة الأولى ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والأعلان ، طرابلس ، 1984 ، ص61 .

[17] . للتفاصيل راجع : علي مصطفى المصراتي ، المصدر السابق ، ص 63 . 130 .

أولـت الفئـة المثقفـة الليبيـة أواخـر القـرن التاسـع عشـر والعقـد الأول مـن القـرن العشـرين اهتمامـاً واسعاً بمختلف مفاصل الحياة السياسية والأقتصادية والأجتماعية والثقافية في البلاد. وإذا احتلت الجوانب السياسية والأجتماعية والثقافية حيزاً مهماً ، فإن الواقع الأقتصادي لم يغب عن أذهان المثقفين الليبيين فأولوا اهتماماً ملموساً له ولمفاصله المختلفة .

نالت الزراعة في الولاية حصة الاسد من اهتمام المثقف الليبي لأنها المورد الاساس للبلاد، ومصدر رزق أهله ،لاسيما وأن هذا الميدان عانى من صعوبات جمة منها قلة مساحات الأراضي الخصبة ،وانعدام وجود الأنهار، فضلاً عن قلة الأمطار فيها .ونجم عن ذلك واقع زراعي متأخر الأمر الذي أكدته إحدى الوثائق العثمانية الرسمية ، لكن هذه الوثيقة لم تنف وجود محاصيل في غاية الأهمية كالزيتون الذي وصفته " محصول عظيم ومهم جداً "، وكذلك التمور([18]) .

قدّر المثقفون بصورة صحيحة أهمية الزراعة في حياة سكان الولاية ، ومن هذا المنطلق كتب أحدهم مؤكداً " أن زيادة الثروة المحلية الطرابلسية موقوف على أمرين مهمين أولهما الزراعة وثانيهما تأمين التجارة السودانية ([19]) . وخاطب مثقف آخر مواطنيه بأسلوب وعظي من أجل النهوض بالزراعة قائلاً " عساكم تهتموا بأصلاح تلك الأراضي الوسيعة وتعمير تلك البطاح الخصبة " ([20]) . فيما دعيت حكومة الولاية بخطاب مباشر من قبل أحد المثقفين إلى " أن تصرف كل مايمكن صرفه للايجاد المياه بواسطة الآبار الأرتوازية "، مقدراً قيمة ذلك من أجل النهوض بالواقع الزراعي ([21]) . ورأى آخر أن مثل هذا العمل يعد من " الأمور التي نرغب إجراءها وهي اعمار الأراضي " منبها في الوقت نفسه إلى مساحة الولاية البالغة 1750000 كيلومتر مربع ([22]) . ودعا مثقف ثالث إلى استخدام الآلات الحديثة في الزراعة مشيراً إلى أن مثل ذلك يضاعف ماينتجه الدونم الواحد من المحصول ([23]) .

سعى المثقفون الليبيون إلى حث المزارعين لزراعة الأشجار المثمرة . وفي الوقت نفسه دعوا المسؤولين في الولاية إلى تشجيع الفلاحين بهذا الخصوص . ومن أجل دفع المزارع الليبي بهذا الأتجاه ، وعد أحد المثقفين بأن " ادارة الزراعة ستتخذ كل وسيلة لمكافأة من يثبت نشاطاً زائداً، وعملاً فائقاً ، مكافأة نقدية فضلاً عن الأدبية " حسب تعبيره ([24]) .

---

[18] . " الوثائق العثمانية " ، المجموعة الأولى،تقرير من أمير اللواء بطرابلس الغرب إلى حضرة السلطان ، الوثيقة رقم 35 ، ص 140 و146 .

[19] . جريدة " الكشاف " ، طرابلس ، العدد 15 ، 16 ربيع الأنور 1327 (7 نيسان 1909) .

[20] . جريدة " الترقي " ، طرابلس ، العدد 200 ، 21شعبان 1329 (11 آب 1911) .

[21] . " الترقي " ، العدد 196 ، 17 رجب 1329 (14 تموز 1911) .

[22] . " الترقي " ، العدد 179 ، 8 ربيع الأول 1329 (14 نيسان 1911 .

[23] . جريدة " أبي قشة "، طرابلس ، العدد ؟ ، 26 جمادي الأولى 1329 (25 مايس 1911).

[24] . " الترقي " ، العدد 167 ، 28 ذي الحجة 1328 (31 كانون الأول 1910).

ولم يخف المثقفون تذمرهم من السياسة الزراعية للادارة الولاية ، وقد وصف أحدهم موقف الأخيرة وعرقلتها لزراعة التبغ في منطقة الزاوية غرب طرابلس بأنها " المصيبة الكبرى " بسبب الشروط التي كانت تثقل كاهل المزارعين ([25]).ورسم مثقف ليبي صورة لمعاناة المواطنين من الدائرة المعنية بشؤون التبغ قائلاً " يكفي ما قاساه الأهالي من إستبداد هذه الدائرة وإغتصاب حقوقهم بكل أنواع الحيل والدسائس " ([26]) .وفي السياق نفسه ندّد مثقف آخر بأدارة الولاية قائلاً بتهكم " إن ينزل الآله عليها ملائكة من عنده ليقضوا حقوقها " ([27]) .

لم يكن مثقفو ليبيا بمعزل عن معاناة الفلاحين في بلادهم ، فدشنت المرحلة التي أعقبت العام 1908 بداية الأحتكاك الفكري لهؤلاء المثقفين بمشاكل الفلاحين فكتب أحدهم مقالاً مؤثراً ورد فيه مانصه " أنظروا أشقاءنا الزراع تجدونهم يقاسون أنواع العذاب الدائم والشقاء الأبدي " ([28]). وفي الاطار نفسه رسم المقال صورة لمعاناة الفلاحين بما يعكس الاهتمام الذي أولاه المثقفون لهذه الشريحة المهمة من سكان البلاد. وعلّق أيضاً بالقول " إنه قلما يمر يوم أو بعض يوم إلا وترى كثيراًمن الفلاحين لم يتمكنوا من الحصول على ما يقتاتون به وعويل أولادهم وعائلاتهم تتقطع منه الأكباد ... " ([29]).وفي ذلك رسالة واضحة تعكس الواقع الزراعي الذي هو من أهم مفاصل الحياة الأقتصادية في الولاية .

جاءت دعوات المثقفين إلى سكان الولاية لارساء قاعدة زراعية سليمة من خلال إنشاء مدارس زراعية . واستمرت مطالبهم لانشاء مدرسة زراعية في طرابلس ([30]). وقد أثمرت جهودهم في هذا المجال وتم انشاء مدرسة زراعية في منطقة المنشية في ضواحي طرابلس عام 1911 ([31]) .

لم يقل الاهتمام في الصناعة من قبل المثقف الليبي عن الزراعة ،فقد استرعت الصناعة اهتمامه وسعى إلى تشجيعها ، على الرغم من أنها أعجز من تنافس الصناعة الأجنبية كماً ونوعاً.ومن هذا

---

[25] . " الترقي " ، العدد 77 ، 23 شعبان 1326 (20 أيلول 1908) .

[26] . " الترقي " ، العدد 186 ، 5 جمادي الأولى 1329 (4 مايس 1911).

[27] . " الترقي "،العدد 150 ، غرة شعبان 1328 (8 آب 1910) .

[28] . " الكشاف " ، العدد 14 ، 9 ربيع الأنور 1327 (31 آذار 1909) .

[29] ." الكشاف " ، العدد 14 ، 9 ربيع الأنور 1327 (31 آذار 1909) .

[30]. جريدة " العصر الجديد " ، طرابلس ، العدد 3 ، 6 ربيع الأول 1327 (28 آذار 1909) ؛ العدد 7 ، 5 ربيع الثاني 1327 (26 نيسان 1909) ؛ " الكشاف " ، العدد 13 ، 2 ربيع الأول 1327 (24 آذار 1909) ؛ جريدة " المرصاد " ، طرابلس ، العدد 13 ، 5 محرم 1329 (6 كانون الثاني 1911).

[31] . تم الانتهاء من بناء هذه المدرسة في تشرين الأول 1911 ، لكنها لم تفتتح بسبب الغزو الايطالي للبلاد . راجع : ليونارد ابلتون ، سياسة التعليم الايطالي إزاء العرب الليبيين 1911 . 1922 ، ترجمة : عبد القادر مصطفى المحيشي ، الطبعة الأولى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، بنغازي ، 1999 ، ص118 .

المنطلق ظهرت دعوات لانشاء مدارس صناعية ([32]).بل ان طروحات أخرى تنم عن إدراك عميق من قبل المثقف الليبي بالصناعة وأهميتها في تقدم المجتمع وتطوره فدعا أحدهم إلى إنشاء " كلية صنايع يتغذى من منهلها العذب أبناء السكان " ([33]) . لكن هذه الدعوة لم تلق آذاناً صاغية من لدن السلطات العثمانية التي لم تستطع أن تقدر بصورة صحيحة أهمية الصناعة وهي قابعة في ظل العقل الاقطاعي السائد في العهد العثماني .

لم يفت موقف السلطات العثمانية من عضد المثقف الليبي الذي استمر في دعواته لتشجيع الصناعة في البلاد .فربط أحدهم بين العلم والصناعة بأسلوب يؤثر في القارىء البسيط قائلاً " إذا نظرنا إلى إثنين من أصحاب صنعة واحدة وكان أحدهما عالماً والآخر جاهلاً فإن الأول يربح من صنعته أكثر مما يربحه الثاني "([34]) . وسعى آخر إلى تأكيد اهمية رواج الصناعة في الولاية بالقول " إن ندخل إليها من الباب أي أن ندرسها درساً دقيقاً حتى إذا بلغنا منها الدرجة المطلوبة عمدنا إلى وضع العلم موضع العمل وأنفقنا المال في سبيلها دون تقتير ولا إسراف " حسب تقييمه للموضوع ([35]) .

ويوشر إهتمام المثقفين في ليبيا بالصناعة للحد من التغلغل الاجنبي من جهة، وتهيئة الأرضية المناسبة لنمو صناعة وطنية من جهة أخرى . فقد حذّر أحد الكتاب من خطورة الرأسمال الأجنبي على إقتصاد الولاية بالقول " إن الفرنجة يسعون إلى استراق ما عندنا من صناعة ضنا بالأموال التي تردنا منهم بواسطتها ، ونحن لانسعى أن نسترق شيئاً من صناعتهم فتعوضنا منها ما أمسكوه عنّا ومنعوه منّا "([36]) .وفي ذلك رسالة واضحة إلى دور الصناعة الأوربية التي تسعى لتشويه نمو الصناعة الوطنية في الولاية .ولفت الكاتب الانتباه إلى الصينين واليابانيين والهنود الذين تمكنوا من إنشاء مصانع وعلّق بالقول " نحن لانزال مغلولي الأيدي " لأننا نريد " أن ندخل مجال الصناعة من غير أبوابها "وعزى ذلك بأنه السبب في تأخير كل مشروع صناعي " ([37]) .فجاءت الدعوة إلى " صاحب المصنع (في ليبيا) أن يكون عارفاً بالميكانيكيات والهندسة خبيراً في انتقاء المواد التي يتوقف عليها رواج صناعته " ([38]) .

---

[32] . " العصر الجديد " ، طرابلس ، العدد 3 ، 6 ربيع الأول 1327 (28 آذار 1909) ؛ العدد 7 ، 5 ربيع الثاني 1327 (26 نيسان 1909) ؛ " الكشاف " ، العدد 13، 2 ربيع الأول 1327 (24 آذار 1909) ؛ " المرصاد " ، العدد 13 ، 5 محرم 1329 (6 كانون الثاني 1911).

[33] . " المرصاد " ، العدد 13 ، 5 محرم 1329 (6 كانون الثاني 1911) .

[34] . " أبي قشة " ، العدد ؟ ، 26 جمادي الأولى 1329 (21 مايس 1911) .

[35] . " الترقي " ، العدد 29 ، 22 شعبان 1315 (16 كانون الأول 1898).

[36] . " الترقي " ، العدد 29 ، 22 شعبان 1315 (16 كانون الأول 1898).

[37] ." الترقي " ، العدد 29 ، 22 شعبان 1315 (16 كانون الأول 1898).

[38] ." الترقي " ، العدد 29 ، 22 شعبان 1315 (16 كانون الأول 1898).

أدرك المثقفون الليبيون عمق المخاطر المحدقة من تدفق البضاعة الأوربية إلى بلادهم لاسيما على المهن الصناعية ، ففضلاً عن عرقلة نمو أية صناعة وطنية فإن الآثار الناجمة عن ذلك قد ألحق ضرراً جسيما في الحرف المحلية وأصحابها . فحسب وصف أحد المثقفين فإن أصحاب صناعة الجلود ، بحكم ذلك ، تحولوا إلى فئة من " الفقراء المساكين " ([39]).واتسع نطاق التذمر من هذا الأمر وسط المثقفين ، الذين لم يخفوا امتعاضهم من إهمال السلطات العثمانية للصناعة التي باتت " أمر لاينكر وشيء لايذكر " على حد وصف أحد مثقفي المرحلة في الولاية ([40]) .

وفي كل الأحوال فإن موقف المثقفين الليبيين يوشر ببساطة ضعف إدراكهم الأقتصادي بحيث لم يقدّروا أن إقامة صناعة وطنية تقتضي توفر ظروف محددة خاصة بها تتجاوز كثيراً رغبة المثقفين ، وامنياتهم التي كانت تتخذ طابعا طوباوياً في حالات غير قليلة ، إلا أنه لايمكن أن يقلل من قيمة توجهاتهم في هذا الميدان تاريخياً .

كانت التجارة الليبية نصب عين المثقف في البلاد لأنها تدر أرباحاً كبيرة على الولاية إلى الحد التي وصفت بأنها من " منابع الثروة المحلية " . وكان جلّ اهتمامهم بموضوع تجارة القوافل القادمة من السودان التي ترفد اقتصاد الولاية بمقوم أساسي من مقوماته([41]) .وعلّق كاتب آخر على أهمية سبل النقل لهذه التجارة لأنها " واسطة طرابلس في تجارة السودان" ([42]) .وبقيت تجارة السودان محط انظار المثقف الليبي ، فوصف نمطاً من هذه التجارة وهي تجارة ريش النعام وصفاً معبراً بالقول إنها " ينبوع ثروة عظيم " ([43]) .وحذر آخر من قطع طريق هذه التجارة مع السودان عبر طريق غات في جنوب غربي البلاد ،وسلوك طريق مدينة قابس التونسية واصفاً ذلك بأنه " ضربة قاضية على التجارة الطرابلسشية السودانية " ([44]) .وفي كل الأحوال كانت التجارة في نظر المثقف الليبي نبض حياة الشعوب الأقتصادية ولا " يمكن لامة أن تعيش بدونها ولا دولة " ([45]) .

ولم يتردد المثقفون الليبيون من الوقوف بجانب التجار الذين قضّت مضاجعهم معاملة سلطات الولاية فكتب أحدهم منددا واظهر تذمراً يعكس حجم معاناة هذة الفئة المهمة في حياة المجتمع فكتب مانصه : "لقد تفجر التجار وتقهقرت أنفسهم مما يلاقونه من شدة المعاملات المؤلمة المخالفة لقانون العدالة وتعويق

---

[39] . " العصر الجديد " ، العدد 5 ، 20 ربيع الأول 1327 (11 نيسان 1909).

[40] . " العصر الجديد " ، العدد 18 ، 21 جمادي الآخرة 1327 (10 تموز 1909).

[41] . " الكشاف " ، العدد 15 ، 16 ربيع الأنور 1327 (7 نيسان 1909) .

[42] . " الترقي " العدد 162 ، غرة ذي القعدة 1328 (3 كانون الأول 1910) .

[43] . " الترقي " العدد 162 ، غرة ذي القعدة 1328 (3 كانون الأول 1910) .

[44] . " الكشاف " ، " الكشاف " ، العدد 15 ، 16 ربيع الأنور 1327 (7 نيسان 1909) .

[45] . "الترقي " ، العدد 84 ، 27 شوال 1326 (22 تشرين الثاني 1908) .

وتأخير المصالح التي لايقتصر ضررها على التجار فقط بل يلحق بعموم الأهالي " . وربط سلوك الأدارة بالمنحى الأستبدادي لأن بعض المسؤولين " انحصرت أفكارهم في استعمالها لأغراضهم الشخصية ، وتصديهم للانتقام ممن يقاوم إستبدادهم "([46]).

لكن ذلك لم يمنع المثقف الليبي من النيل من التجار في بلادهم فقد سدد المثقفون الليبيون سهامهم إلى محتكري الحبوب من تجار طرابلس الذين " ضربوا على يد الفقير واخذوا يشترون الحبوب الجديدة مهما ارتفعت أسعارها، وهم يحملونها إلى الخارج علّهم يربحون ربحاً طفيفاً يفقرون به جميع سكان الولاية ... ([47]) .ولم يكتفوا بالتنديد بهؤلاء التجار الذين " هم غير مبالين وبأبناء وطنهم غير رافقين ". بل ورد في الوقت نفسه ما كتب بطريقة تحس فيها بوادر تحريض في إسلوب معالجة هذا الموضوع الحساس عندما أشار أحد الكتّاب إلى أن " ولاة الأمر غير منتبهين " لما يحصل في هذا الصدد ([48]) .

وفي الأطار نفسه هاجم أحد المثقفين شركة (روبانيتو) الايطالية التي احتكرت النشاط التجاري في الولاية ، وعزا ذلك لعدم وجود منافسة لها ، وندد بممارسات الشركة قائلاً " أخذت تستعبد التجار وتعاملهم في كل زمان حسبما تريد ،ولقد كثرت شكاوى التجار من سوء معاملتها " ([49]) .واللافت للنظر أن المثقفين كانوا بالمرصاد لهذا النوع من الشركات التي وصفت بأنها "غدت في المدة الأخيرة تظهر " بمظهر سياسي وأنها تخدم سياسة إيطاليا أكثر مما تخدم مصالح التجارة " ([50]) .

لم يبق ميدان إقتصادي في البلاد لم يتصد له المثقف الليبي ، فكانت السياسة الضريبية لحكومة الولاية من المواضيع التي حظيت بأهتمامه ، لاسيما أن السلطات العثمانية لم تتنازل عن شيء من مستحقات الضرائب ، ويظهر العديد من الوثائق تذمر القبائل الليبية من السياسة الضريبية ، والشكاوى المقدمة إلى والي الولاية بهذا الشأن ([51]) .بل أن سلطات الولاية لاتتردد عن مطاردة القبائل التي ترفض دفع الضرائب ، كما حدث لقبيلة الرحايمه، في قضاء ترهونه جنوبي طرابلس ([52]). ولم يتردد المثقف الليبي عن مهاجمة الضرائب بل حتى القائمين على جبايتها على أنهم بمثابة الضرائب نفسها ، بسبب تعسفهم ، وعدم نزاهتهم في الحصول عليها ، حتى وصفت اللجان القائمة بهذا العمل بأنها عند خروجها تثير " صراخ الفلاحين ما يطبق الفضاء من عويلهم وما تتفتت له القلوب من العسف الذي يلحقهم من (

---

46 . " الكشاف " ، العدد 4 ، 27 ذي الحجة 1326 (20 كانون الثاني 1909).

47 . " العصر الجديد " ، العدد 11 ، 3 جمادي الأولى 1327 (23 مايس 1909) .

48 . " العصر الجديد " ، العدد 11 ، 3 جمادي الأولى 1327 (23 مايس 1909) .

49 . " الترقي " ، العدد 77 ، 23 شعبان 1326 (20 أيلول 1908) .

50 ." الترقي " ، العدد 77 ، 23 شعبان 1326 (20 أيلول 1908) .

51 . للتفاصيل راجع :الصالحين جبريل الخفيفي ، النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب 1835 . 1912 ، الطبعة الأولى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، بنغازي ، 2000، ص 44 . 45 .

52 . المصدر نفسه ، ص 43 .

هذه) [53] اللجان ... " ([54]) .وقيم أحد المتنورين من أهل فزان واقع الضرائب وسوء جبايتها بالقول " إن هناك من الفلاحين من يؤخذ منه ثلث الحاصل ،وهم الأكثرية ، فيما يؤخذ من البعض واحد بالمائة، ورأى في ذلك" رزية آلت إلى خراب اللواء ، وشتت أهله في البلدان " ([55]) .ومما تجدر الاشارة إليه أن النظام الضريبي الجديد الذي شرع في تطبيقه عام 1903 ، اضيفت له ضريبة الدخل التي كانت مطبقة في المناطق الاخرى من الدولة العثمانية وشهدتها ولاية طرابلس الغرب لأول مرة في تلك السنة ([56]) .وقد أثارت السياسة الضريبية حتى بعض المسؤولين العثمانيين في طرابلس الغرب فقد وصف عمر عالي بك متصرف سابق لبنغازي عام 1908 ، تحصيل الضرائب بأنه يتم " بالمدافع والقوة العسكرية " ، وعلّق على الأمر بأنه " مضر جداً " ([57]) .

كما احتل الجانب المالي موقعاً مهماً لدى المثقف الليبي ، الذي قدر بعمق هذا الأمر الحيوي في حياة بلاده .ولم يكن غائبا عن ذهنه نشاط مصرف روما*الاستعماري الذي بدا بالتغلغل في مفاصل الحياة الاقتصادية في ليبيا . وعلى الرغم من التصدي الشجاع لهذا المصرف من قبل المثقفين الليبيين ([58]) ، إلا أنهم قدروا بصورة صحيحة أهمية دور المصارف المحلية خصوصاً ، والعثمانية عموماً ، فكانت هناك دعوات منهم لتأسيس مصرف وطني يكون مستعداً لتقديم القروض للسكان ورأوا في ذلك بأنه من الوسائل التي يمكن أن تكون سداً منيعاً لمنع تغلغل الرأسمال الأجنبي ([59]) .ولم يتردد أحد المثقفين من تنبيه أذهان السلطات العثمانية في العاصمة من خطورة القروض الأجنبية ، وعليها أن لا " تدع نفسها محتاجة للوقوف بابواب البنوك الأجنبية "([60]) .

---

[53] . في النص هاته .

[54] . "العصر الجديد" ، العدد5 ، 20 ربيع الأول 1329 (11 نيسان 1911) .

[55] . " الترقي " ، العدد 195 ، 4 جمادي الأخرة 1329 (2 حزيران 1911) .

[56] . فرانشسكو كورو ، ليبيا اثناء الحكم العثماني الثاني ، ترجمة : خليفة محمد التليسي ،دار الفرجاني ، طرابلس ، 1971 ، ص44 . 45 .

[57] . " الوثائق العثمانية " ، المجموعة الأولى ، تقرير عمر عالي بك المتصرف السابق لبنغازي سنة 1326هـ (1908) ، الوثيقة رقم 44 ، ص 200 .

* . تأسس هذا المصرف في مدينة لازيو الايطالية عام 1880وفتح له فرعاً في طرابلس عام 1907 .ثم فتح له فروعاً في مدن ليبية اخرى . للتفاصيل : راجع عقيل محمد البربار، دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، منشورات ElGA، مالطا ، 1996 ، ص101 . 103 .

[58] . للتفاصيل راجع : عبد الرزاق أحمد النصيري ، دراسات ليبية في التاريخ الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الشموع للثقافة ، الزاوية . ليبيا ، 2008 ، ص 116 . 119 .

[59] . " الترقي " ، العدد 196 ، 17 رجب 1329 (14 تموز 1911) .

[60] . " الترقي " ، العدد 157 ، 21 رمضان 1328 (26 أيلول 1910) .

ولم يقف مثقفو ليبيا مكتوفي الأيدي أمام الأخطار المحدقة بثروات البلاد فوجه بعضهم انتقاداً لاذعاً للموقف السلبي لممثلي الولاية في " مجلس المبعوثان " العثماني إزاء الامتيازات الأجنبية للتنقيب عن الفوسفات 0([61]) . ولم يتردد أحدهم عن إماطة اللثام عن إغراء أصحاب الامتيازات للمندوبين بالمال من أجل المصادقة على وثائق شركة الفوسفات ([62]) .

وعقد مثقفو ليبيا النية على جعل الاهتمام بالحياة الأقتصادية في بلادهم ركناً أساسياً في حياة المجتمع ، فربطوا بصورة دقيقة بين الاقتصاد والعلم والمعرفة ونبهوا الأذهان بأن الأقتصاد يعتمد على النهوض بالمعارف ، بل ان سر التقدم الكامن في الحياة الاقتصادية هو في تطور المعرفة([63]) .وشخّص أحد المثقفين التفاعل العميق بين المعرفة والأقتصاد بالقول " إنها تقود ألامة إلى طرق أبواب الأقتصاد ..." حسب تعبيره ([64]) .

أدرك المثقف الليبي موضوعاً خطيراً حين ربط بين الاقتصاد والسياسة ،ومما له مغزاه أن كاتب المقال سماه " الاقتصاد السياسي " . وهو مؤشر على تحول في التفكير لدى المثقف الليبي ، وفي إسلوب عرضه له ،وقبل كل شيء أصبح بوسعه أن يطرح آراءه وأبحاثه على الليبيين بصورة مباشرة من خلال صحافة طرابلس لا غيرها .

وخلاصة القول إن السنوات القليلة التي سبقت الاحتلال الايطالي ، شهدت انطلاق الفكر الاقتصادي لدى الفئة المثقفة الليبية . ومما يسجل لهم أنهم بدأوا يقتربون من فهم الرابطة الوثيقة بين الاقتصاد والحس الوطني .

قائمة المصادر

أولاً : " الوثائق

الوثائق العثمانية ، المجموعة الأولى ، ترجمة : محمد الأسطى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية رقم 7 ،طرابلس ، 1990.

ثانياً : الصحف والمجلات :

. جريدة " أبي قشة "، طرابلس ، العدد ؟ ، 26 جمادي الأولى 1329 (25 مايس 1911).

. جريدة " الترقي " ، طرابلس ،

العدد 29 ، 22 شعبان 1315 (16 كانون الأول 1898).

العدد 77 ، 23 شعبان 1326 (20 أيلول 1908) .

[61] . إسماعيل مولود القروي ، المصدر السابق ، ص84 .

[62] . المصدر نفسه ، ص 83 .

[63] . " العصر الجديد ، العدد 20 ، 12 رجب 1327 (30 تموز 1909) .

[64] . " المرصاد " ، العدد 15 ، 19 محرم 1329 (20 كانون الثاني 1911 .

العدد 84 ، 27 شوال 1326 (22 تشرين الثاني 1908) .
العدد 150 ، غرة شعبان 1328 (8 آب 1910) .
العدد 162 ، غرة ذي القعدة 1328 (3 كانون الأول 1910) .
العدد 167 ، 28 ذي الحجة 1328 (31 كانون الأول 1910).
العدد 179 ، 8 ربيع الأول 1329 (14 نيسان 1911) .
العدد 186 ، 5 جمادي الأولى 1329 (4 مايس 1911).
العدد 195 ، 4 جمادي الأخرة 1329 (2 حزيران 1911) .
العدد 196 ، 17 رجب 1329 (14 تموز 1911) .
العدد 200 ، 21شعبان 1329 (11 آب 1911) .

. جريدة " طرابلس الغرب "، طرابلس ،

العدد 167 ، 24 صفر 1287 (26 مايس 1870).
العدد 212 ، 7 ذي الحجة 1288 (14 شباط 1872).
العدد258 ، 18 جمادي الأولى 1291 (3 تموز 1874) .
العدد463 ، 25 ربيع الاول 1299 (14 شباط 1882) .
العدد 1112 ، 3 محرم 1323 (10 آذار 1905
العدد1113 ، 10 محرم 1323 (17 آذار 1905) .
العدد 1177 ، 11 ذي القعدة 1324 (27 كانون الأول 1906) .
العدد 1362 ،25 ربيع الآخر 1329 (25 نيسان 1911) .

. جريدة " العصر الجديد " ، طرابلس ،

العدد 3 ، 6 ربيع الأول 1327 (28 آذار 1909).
العدد 5 ، 20 ربيع الأول 1327 (11 نيسان 1909).
العدد 7 ، 5 ربيع الثاني 1327 (26 نيسان 1909).
العدد 11 ، 3 جمادي الأولى 1327 (23 مايس 1909) .
العدد 18 ، 21 جمادي الآخرة 1327 (10 تموز 1909).
العدد 20 ، 12 رجب 1327 (30 تموز 1909) .

. جريدة " الكشاف "، طرابلس ،

العدد 4 ، 27 ذي الحجة 1326 (20 كانون الثاني 1909).
العدد 13 ، 2 ربيع الأول 1327 (24 آذار 1909).
العدد 14 ، 9 ربيع الأنور 1327 (31 آذار 1909) .
العدد 15 ، 16 ربيع الأنور 1327 (7 نيسان 1909) .

. جريدة " المرصاد " ، طرابلس ، العدد 13 ، 5 محرم 1329 (6 كانون الثاني 1911).
العدد 15 ، 19 محرم 1329 (20 كانون الثاني 1911) .

. " مجلة الأفكار " ، طرابلس ، العدد الرابع . الخامس ، آذار . نيسان 1956.

ثالثاً : الكتب العربية والمعربة :

. أتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911 ، ترجمة : خليفة محمد التليسي ،الطبعة الثانية ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، 1991.

. إسماعيل مولود القروي ، التمهيد الثقافي الايطالي للغزو العسكري لليبيا 1882 . 1911 ، الطبعة الأولى ، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ، الرباط ، 1993 .

. الصالحين جبريل الخفيفي ، النظام الضريبي في ولاية طرابلس الغرب 1835 . 1912 ، الطبعة الأولى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، بنغازي ، 2000 .

. عبد الرزاق أحمد النصيري ، دراسات ليبية في التاريخ الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الشموع للثقافة ، الزاوية . ليبيا ، 2008 .

. عقيل محمد البربار، دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، منشورات ElGA، مالطا ، 1996

. علي مصطفى المصراتي ، صحافة ليبيا في نصف قر . ، الطبعة الثانية ، الدار الجماهيرية للنشر والاعلان والنشر والتوزيع ، مصراته ،2000

. عماد الصلح ، أحمد فارس الشدياق ، بيروت ،1980 .

. فرانشسكو كورو ، ليبيا اثناء الحكم العثماني الثاني ، ترجمة : خليفة محمد التليسي ،دار الفرجاني ، طرابلس ، 1971.

. لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة : عفيفة البستاني ، دار التقدم ، موسكو ، 1971

. ليونارد ابلتون ، سياسة التعليم الايطالي إزاء العرب الليبيين 1911 . 1922 ، ترجمة : عبد القادر مصطفى المحيشي ، الطبعة الأولى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، بنغازي ، 1999

. مابل لومس تود ، أ سرار طرابلس ، الطبعة الأولى ، دار الفرجاني ، طرابلس ، 1968.

. محمد مسعود جبران ، مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح ادبه ، الطبعة الأولى المنشأة العامة للنشر والتوزيع والأعلان ، طرابلس ، 1984.

ـ هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب عصر النهضة 1875 ـ1914 ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1970